مرفأ في الليل الطويل

قصة بقلم عبد الرحمن الربيعي

(صالح العزيز

تحية من مراتع الثلج الذي احببته

كيف انت ايها العربي الكئيب ؟! ليتك تعلم ان لقائي بك لم يكن عابرا وان اردت جعله هكذا ، ما زلت احن لصوتك البارد وهو يتحدث عن النساء والحياة وفلسطين مشوبا بذلك الحماس الذي لم اجده في ايامي الماضية !

عاهدتك على ان لا اكتب لك ولكن عنوانك الذي خطه قلمك ما زال في حقيبتي ويجعلك حاضرا امامي فكتبت لك .. لماذا لا تكتب لي انت؟ تحياتي لارضك واصدقائك .

صديقتك قدسي)

في هذه الكلمات الدافئة تبدد صحوه وغامت سماؤه وبحث عن مخبأ يظلل رأسه المثقل فلم يجده، قرأها مرة اخرى ، الملعونة ، لقد نسخت كلمات عنواني كما هي .. حروفي المتعثرة اليتيمة ، واسمي الاكثر كآبة من كل احزان الارض . اعاد الرسالة الى المظروف ثم وضعها في جيبه وحاول ان لا يبحر في بحار الذكرى ولكنه لم يستطع.

يوم رآها كان يطوف في (خيابان ناصر خسرو) ممزقا كشراع قديم . كان انذاك يحاول اطفاء جحيمه بصقيع طهران ، ولكن الجحيم ازداد عسفه عندما صافحت يدها يده ، ثم انخرط في الشروق اليانع الذي قدمته له عيناها الفارسيتان واعطى جسده للشمس والبحر والهدوء .

ـ لماذا كنت تتفاضاني ؟

وامام هذا القرب الدافيء وقف حائرا ولكنه قال وهو يمن انامله على زجاج الطاولة :

ـ اللغة ، خفت ان لا اجد لغة للتحدث معك !

ـ اذن لنشكر الانجليزية ، اليس كذلك ؟!

ثم ضحكا .

عادت تتفحصه بانتباه وكأنها تحاول سبر اغواره المعتمة ، ولكن انقباضه كان يصفعها فلا تجد غير البسمة تزرعها على شفتيها ، فيرد على بسمتها . الانوار كابية في (دايموند كافيه) وعلى المقاعد الاخرى تتهامس اجساد عن الحاضر والغد وافلام السينما . وظلت تمخر في بحار اليأس التي اغرقها فيها .

ـ متى عرفت هذا المكان ؟!

قال لها :

ـ دخلته برفقة زميلين لي اول مرة ، تصورنا ان سعر البيرة غال جدا فقلنا لنغامر بزجاجة واحدة ثم ندفع الحساب ، فان وجدنا السعر مناسبا سجلنا اسماءنا ضمن رواده المدمنين .

ـ وهكذا اصبحت ؟

هز رأسه بالايجاب ثم ابتسم لعينيها . ما الذي افعله لك ، انني معتم مرهي لن تصطف الجحافل مصفقة تحية لي ؟!

ـ ساعات الرحيل تدنو يا قدسي ؟

ـ سابكي حتما ، ولو انني لم اعرف البكاء من قبل !

ـ حرريني من هذه اللفظة ارجوك ، ان في قلبي كل مآتم الدنيا ولكن بسمتك ازاحتها !

ونمت في عينيها دمعتان عندما قالت :

ـ ولكني مضطرة !

وقال لنفسه :

ـ لقد زرعت مرضي في هذه الارض !

ثم وجه كلامه اليها :

ـ ولماذا تفعلين ذلك ؟ ان عمر لقائنا قصير جدا للدرجة التي لا يمكنه ان يكون فيها حدثا هاما !

امسكت يده ثم هزتها وهي تقول :

ـ لماذا تتصور كل هذا ؟ لحظات قصيرة ولكنها غنية فقد ملأناها!

وكان صوتاهما وهما يرددان الحوار الوحيد يبدوان خائرين متعبين لمكوثهما الطويل في ابار التشنج والحنين .

انا امامك ، اتدلله لانسياب البراءة في حركاتك التي تمرق برشاقة ظبي ، واجد يدي مستقرة على خدي ، واود لو احطم جدران الكبت الماجن الذي يورم شفتيك ، وابحث عن ترنيمة للخيام فاجد الليالي والفسق والتغني حتى بزوغ فجر جديد ، وتمر صور السبايا التي قطعت اعناقها في حضرة السلطان ، ولا اقوى على البكاء وتظل الحجارة مصفوفة في ذلك الممر الصخري الرهيب .

بسط كفه على المنضدة ، قلبتها على ظهرها ثم اخذت تخدشها باظافرها الطويلة .

ـ لماذا ؟

ـ حتى تتذكرني !

ـ لا اريد ان ازرع كذبة جديدة هنا ، انا رجل مرفوض هارب من ظلي . اتعرفين ما اعني ؟

هزت رأسها بالايجاب ، ثم تركت يده منطرحة على المنضدة،وطوقت انامله زجاجة البيرة وسكبت ما تبقى منها في كأسها ، اخذت رشفة كبيرة وطقطق السائل في بلعومها ، بعد ذلك اطلقت زفرة حادة وتمتمت بكلمات ايرانية لم يفهمها ، ثم رمت في فمها بقطعة (جبس) واخذت تمضغها بتلذذ .

القى بظهره على متكأ الكرسي ، واخذ يدخن ويراقبها ، واحس بألفة سامة تشده لوجهها الغض كالشرايين ، وتعبق رائحة عطرها في فضاء حلمه الغزير . تأخذ السيكارة من يده وترشف منها نفسا عميقا ثم تقول بلهجة معابثة :

ـ لا اصدق ان هذا اخر لقاء ليمعك !

ـ وقد لا ترينني ابدا !

ـ هذا فظيع !

ـ ولكنه الواقع ، ان مقعدي محجوز وغدا في الرابعة وقبل ان تقبل شمس طهران جبين الجليد ساكون قد غادرتها .

ثم نادى النادل وقال له بلهجة ايرانية متعثرة :

ـ دو اب جو .

وضحكت من لهجته .

ـ انت تتعلم بسرعة !

ـ ان اذني سريعتا الالتقاط .

وضع النادل زجاجتي البيرة امامهما ، ملأ كأسها ثم كأسه ، رفع كأسه وهو يردد :

ـ نخب عيني قدسي الحلوتين !

ـ نخب وجه صالح الحزين !

وضحكت ايضا ، وتموجت حنجرتها باسترخاء كانسياب الماء ،

وكان شعرها السبط المقصوص ينام هانئا كالاطفال ، ويتذكر كل الدروب الزلقة التي لم ترحم قدميه .

بعد كأسين يقول لها :

ـ اتعلمين يا قدسي ان اسمك هو اسم اكبر جرح في قلب امتي؟ هذا الجرح تطأه اليوم اقدام مدنسة فتنكاه . من الذي اسماك بهذا الاسم ؟ لماذا اطلقوه عليك دون كل الاسماء ؟!

ـ قرأت كثيرا عن القدس ، صحفنا شوهت الكثير ، جعلت منكم المعتدين ومنهم الابرياء !

ـ انها لعنتنا ، لا نعرف التصرف! واليوم ماذا تقولين ؟!

ـ عرفت الحقيقة وسأكون بجانبكم .. ثق .

ثم شربت جرعة جديدة .

عاد ليدخن ويفكر في ثورته المتأخرة التي اعلنها في هذا المكان الكسول ، قال :

ـ حسنا يا قدسي . حدثيني عنك اذن ؟

ـ ليس هناك ما هو مهم ، لقائي بك هو الحدث الوحيد الذي حطم برود ثلاثة أعوام منذ أن فارقته ، أنه هنا في هذه المدينةالواسعة، ولكنني اراه رغم كل شيء وفي كل مرة يصوب لي طعنة اظنني لا انهض بعدها ، ولكنني اقاوم ، لقاؤك كسر المنهاج الممل الذي استسلمت له بين الكلية والوظيفة وبذاءة والدي السكير ، ماذا تريد بعد ؟! وانت ماذا خلفت ؟!

ـ اواه .. مجرد سرب من اللعنات لا شيء بعد ... حدثيني عن احلامك ... اريد أن اصغي اليك !

رمت في فمها قطعة (جبس) وقالت :

ـ رأسي ضيق جدا ليس فيه حلم واحد !

امسك بكأسه وقال :

ـ اذن لنشرب نخب والدك السكير !

رفعت كأسها وهي تبتسم ثم شربا .

اعادت الكأس الى المنضدة ثم ملأتها من جديد ، عضت بشفتيها جدار الكأس واخذت ترتشف رغوة البيرة الفائحة على الجدران، هذه المرأة الاثيثة الرائعة لو كانت في وطنه لعبدها ولن يترك لحظة تمر دون ان ينهل من رغابها الجامحة ، انها جديدة عليه بكل صدقها واندفاعها ، ليس فيها ذلك الخفر المقرف الذي رآه في عيون من احبهن هناك ، ذلك الخفر المريض الذي لا شفاء منه . واستعاد كلمات زميلته ليلى والحوار الذي دار بينهما قبل يومين حيث قال لها :

ـ نحن في طهران ولسنا في بغداد ، وعلينا ان نتحرر من عقدنا العراقية ولو لبعض الوقت .

اجابته وهي تهز رأسها بعتاب :

ـ ولكننا نعود اليها فما الجدوى اذن ؟!

ـ المهم ان نمارس تجربة الانعتاق !

ـ بالنسبة لك كرجل اما بالنسبة لي فلا .

وقدسي ، هذه المرأة التي تنهمر امطار النشوة من ساقيها المستديرتين ، اي فضول غريب دفعها لان تلتقي به بينما كان ذاهلا يدور في مخازن (خيابان ناصر خسرو) ؟ ولتقف امامه ولتكون كذبة جارحة في سلسلة الكذب الطويل الذي لم ينعتق منه يوما ، ولولاها لما عرف من عيون الفارسيات غير لهاث الليل في غرف (دروازة قزوين) الكابية ؟ اخذ جرعة جديدة ، مسح فمه بكمه ، ثم عض شفته نادما على هذه العودة السريعة لهمجيته الاولى وقال :

ـ سأنساك بمجرد ان اتخطى حدود طهران .

ـ يا لك من قاس !

ثم اردفت :

ـ ولكن اكتب لي .

ـ هذا كل شيء ، لقد اعطينا للكذبة حقها .

ـ لماذا تصر على هذه التسمية ؟

ـ اعندك غيرها ؟! انني اكبر رومانسي في الارض ، ولكنني لن اغير تأريخي من اجل بسمة على شفتيك !

ـ ولكنني صادقة !

ـ انه صدق مستحيل !

ثم اخذت تتكلم بكثرة وعندما احست ان لا جدوى منه صمتت وتركته يشمل ويضيع ، وتركها هو الاخر تصمت وتغيب ، وظن انها قد غابت حقا وانطفأت في رأسه ألكدر ولكن حروف رسالتها اليوم ايقظت ذلك اللقاء واحيته من جديد ورفع النائم رأسه في انتظار لعبة جديدة.

استخرج الرسالة من جيبه واعاد قراءتها للمرة الثالثة وعندما انتهى منها هتف بيأس :

ـ لن ينتهي الجنون مطلقا !

ثم فكر بالرحيل الى ارضها ثانية .

بغداد

عبد الرحمن مجيد الربيعي

صدر حديثا

الأدب المسؤول

لفقيد الادب اللبناني والعربي

رئيف خوري

دراسات رائعة يمكن اعتبارها أجمل ما كتب الاديب الراحل ، معالجا فيها مختلف المشكلات الثقافية ، متناولا عددا هاما من الكتب الادبية بالنقد والتحليل بروح عميقة ونكتة لاذعة . كما ان الكتاب يضم نص المناظرة الشهيرة التي اجراها الفقيد مع الدكتور طه حسين في موضوع « لمن يكتب الاديب ، للخاصة ام للكافة ؟ »

منشورات دار الآداب